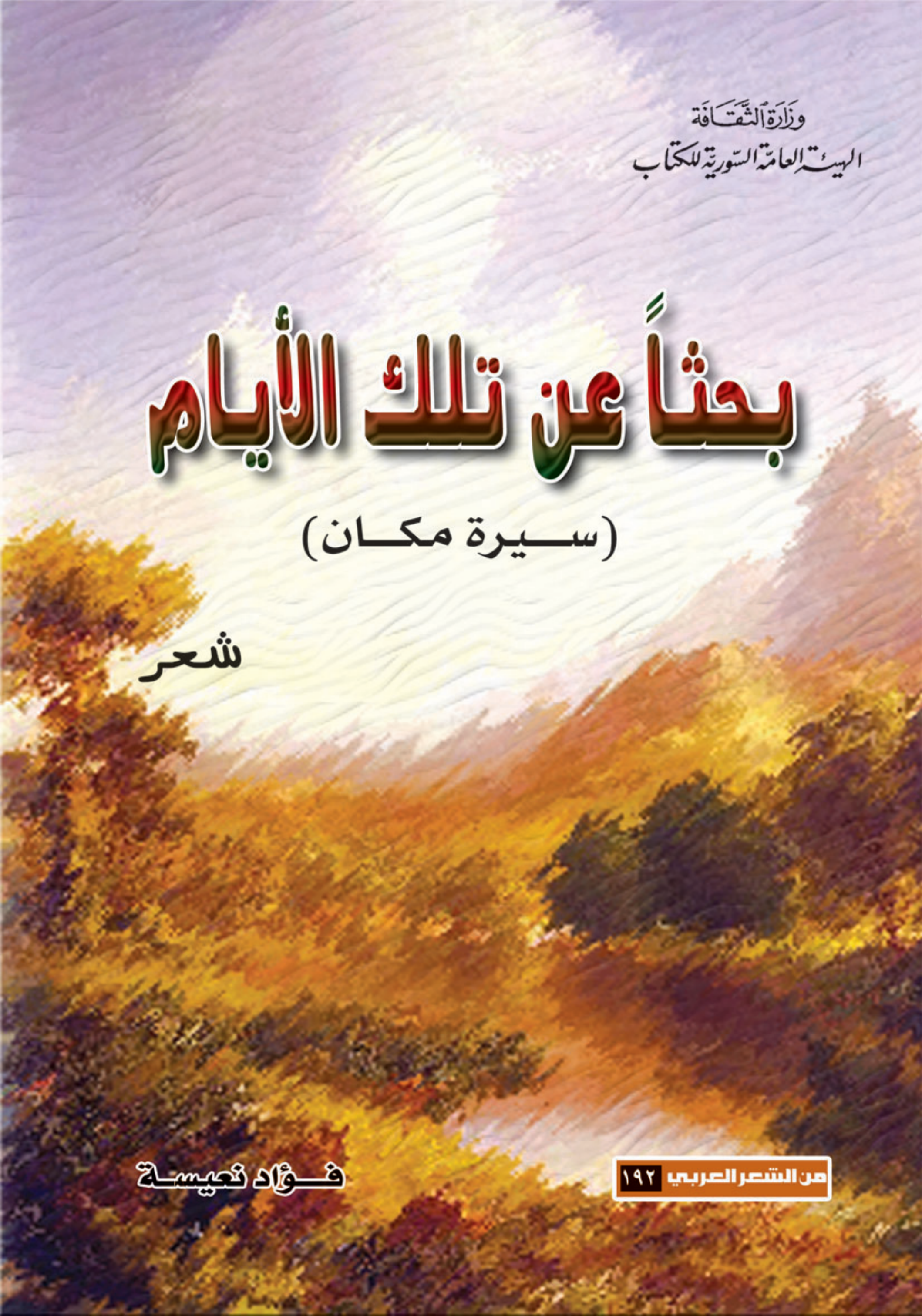


وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

بحثاً عن تلك الأيام

(سيرة مكان)

شعر

فؤاد نعيسة

من الشعر العربي ١٩٢

بحثاً عن تلك الأيام

فـؤاد نعيسـة

بحثاً عن تلك الأيام

(سِيْرَة مكان)

شعر

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١١م

بحثاً عن تلك الأيام : سيرة مكان : شعر / فؤاد نعيسة
. - دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب ، ٢٠١١م . -
١١٢ ص؛ ٢٠ سم .

(من الشعر العربي؛ ١٩٢)

١ - ٨١١,٩٥٦١ ن ع ي ب ٢ - العنوان
٣ - نعيسة ٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

من الشعر العربي

١٩٢

الأَمْكِنَة

عدْتُ «بَس نادى» [١]

معَ الخمسينَ ، كَـهْلا

فاغفـِري، يا أُمُّ، آثامَ البنينْ

وابْسُطي كـَفـَّيْكِ

ضـُمِّيني ، إلى صدرِك ، طِفـْلا

مثلما كنتُ ، على مـَرِّ السنينْ

* * *

---

(١) بس نادى : تصحيف لاسم (بسنادا) ، قريتي في الساحل السوري، هكذا تصبح الكلمة عبارةً بمعنى (ما إن نادى حتى . . .).

عندما زحزحتُ بابَ الدّارِ

«هَرْهَرْتُ» خيوطَ العنكبوتْ

وصريرُ الصَّدأ الطّاغي

تمطّى، صَوْبَ أنقاض البيوتْ

كيف، يا مَهْدَ الشقاوات الغريراتِ، نموتْ

وَبِنا جوعٌ ... إلى حَبَّةِ زعرورٍ، وتوتْ؟!

* * *

أين، يا عِـلـِّيةً مفتوحةً للبحر، أينْ
سـَهَراتُ الأهل، في الشـُّرْفةِ
والعشّاقُ تحت الشـُّرْفـتَـيَنْ
تـَمْتـَماتٌ ... يسْتـُرُ الحَوْشُ صداها
ويـُعرّي القمرُ الساري التصاقَ الشـَّفتينْ
أين، يا عِلـّـيّتي البيضاءَ، أين؟!

*   *   *

لَـمْ أَزَلْ أَذْكر تلك المصْطَبَهْ

وصبايا الحَـيِّ ....

- أُمـيِّ، رَشْـفَـةَ القهوة كانت طـيِّبهْ

فلماذا يَتَغامَزْنَ، متى أَبْصَرْنَ عَمـّـي ؟!

* * *

أين ظِـلـّي
ونساءُ الحَيِّ يُوقِدْنَ الحطبْ؟!
فإذا غَـمَّ دخانٌ
وإذا هَـمَّ التـَّعبْ
وهَّـج التـَّنـّور عـَتـْماً
مَـلأَ المَيْزَرَ[١] خبزاً
ورمى للطفلِ
كعكاً... ولـُعَبْ!

* * *

(١) الميزر: أصلها مِئزر، فهي فصيحة إذن.
والميزر قطعة من قماش الخام، واسعة. بيضاء. نظيفة. كان يُحفظ ضمنها خبز التنور ليبقى لـَدِناً

كَـوْمةُ الأحجار، مـَن يذكرها؟ !

ما الذي كانـَتـْهُ، يا صمتاً تحجـَّرْ؟ ! . .

قـِيلَ ما قيل . . . . . ومـِن أقصى القـُرى

يـَفـدُ الزيتونُ مُسْودّاً، وأخضرْ

ليؤوبَ الزيتُ . . . . ماذا يا تـُرى؟ !

قـِيلَ ما قيلَ . . وريقُ الشمس أصفرْ ! .

كومةُ الأحجار، مـَنْ بـَعْـثـَرَها؟ !

لمْ تعدْ تـَعْصِرُ إلا ذلك العمرَ المـُبـَعـْثـَرْ !

* * *

هذه البِئْرُ التي، يوماً، حَفَرْنا، للسَّهارى

ولإِبناء السبيلْ

كان جَدِّي، قربَها، يَقْضي النهارا

صلواتٍ .... ويَقيلْ !.

ولكَمْ كنّا صِغارا !

نَمْرُش ... الشُّوباسَ (١) والدِّيْسَ (٢)

وأعنابَ الخليلْ

(١) الشوباس : شجر بري مثمر، ثمرته ذات مذاق حلو لذيذ، الواحدة من ثماره بحجم حبة الحمص، تبدأ نضجها خضراء، لِتُمسي في النهاية بنيّة غامقة .

(٢) الدّيس : ثمر العلّيق .

وإذا الضوء توارى

وأَوَتْ، للـبْـرُجِ، أسرابُ الهديلْ

لَـمْلَـمَتْـنا أمهاتٌ

عدْنَ يَـحْـمِـلْـنَ الثِّمارا . . .

فَـتَـكَـوَّمْنا على طسْتِ الغسيلْ

بعضُـنا . . . يَرْجُـفُ بَـرْداً

بعضنا . . يضحك سِـرّاً

بعضنا . . كان، مع الماء، يسيلْ . !

يا إلهي

كيف غاضَ الزمنُ الحُـلْـوُ، وجارى

ماؤنا العَذْبُ، نواقيسَ الرّحيلْ ؟ !

* * *

عينُ « شَوْرَبْ » [1]

لـمَـزارِ « الشيخ نبهانَ »، وتلك المقبَرهْ

عين ... « فـوْقا» [2]

للصبايا، وصلاةِ القـُبـَّـرَهْ ! ..

ناشفٌ ريقيَ «بسْنادا»
فهل لي دمعةٌ
من فـَيضِ عينيكِ ... لأشربْ ؟ !

* * *

ذلك المَرْجُ ... لِـمَـنْ خـَلـَّفْـتـُـهُ
يا زمانَ الهَجْرِ، يا أقسى زماني ؟ !

(١ + ٢) عينان أثريتان في مكانين متباعدين من بسنادا .

أمس ، لمّـا زرتُـــهُ
دَعَـكَ َ العينينِ شـكـّاً ... لِـيـَراني !
ذبتُ ، في كـَفَّــيْهِ، ماءً
ذابَ، في صدري، دِماءً
صرتُ عشْـباً
صار حـبُـّاً، ونداءً !...
أنا ذاك المـَرْجُ، والـَمْرجُ كياني
فاحـرُقاني
أنتَ، يا عشبُ
ويا حـبُّ
احـرُقاني !

* * *

بـيْدَرُ «القَـبْوِ »[1] لإِفراحِ الكـُرَهْ
لو «أبو ابراهيمَ » يـَعْفو
وأبو ابراهيم، رغـْمَ «الخَـتـْيـَرَةْ»
ما له جفنٌ يرُفُّ ! . . .
كلمـّـا جئناه، نرجو المـَعْذِرَةْ
خَمَّسَ الخدّينِ . . . كـَفُّ ! .

(١) القبو : في الريف، بناء ضخم، غالباً ما يكون مُنفرداً في مكانٍ رابٍ ، يقيم فيه وكيل الإقطاعي، الشوباصي .

أمام هذا البناء، ثمة دائماً بيدر واسع لجمع ودرس الحبوب، كنا نشقى كثيراً لنستطيع لعب الكرة فيه .

- يا أبا ابراهيمَ، بعضَ المـَغـْفـِرَةْ

إنـّما الأيام ... صيفُ !

لم تكن للشـَّيْخِ تلك المأْثـَرَةْ ..

كان، أحياناً، وراءَ القـَبْرِ ، يغـْفو

ولـِذا

ياما نـَبَـشـْنا بـَيـْدَرَهْ ..

وسَرَقنا شَجَرَهْ

ولعبنا ... بالكرةْ !.

* * *

سفحـكِ العاري

على مَرأى من البحرِ

سواقيكِ العذارى

ما الذي واراهُ، واراها

وفي الليل توارى ؟ !..

أوَمـا أَوْقـدْتُ أيّاميَ

«بسْنادا»

لِأُبقيكِ ، على الأيام، نارا ؟ !...

* * *

الأسماء

صوتُ عمّي

والمسا يحبو على شُرْفتنا

كان يهمي :

- أمَّ عزِّ الدِّينِ ، هاتي «دمعةً» (١)

بعضَ عَيْتونٍ ، وزيتونٍ ، وماءْ

حَلَفَتْ أُمِّي : لَدَيْنا ما تشاءْ

وأبي يَكْظِمُ غَيْظاً، ويُنادي :

- أُمَّ عزِّ الدينِ ، لا تأتي ... بماءْ ! ...

* * *

---

(١) دمعة : كلمة شعبية . تعني القليل من العرق، الخمر المعروف .

... «وَزُهورُ» احْدَوْدَبَتْ

جاوَرَتِ الأَرْضَ ... ولكنْ

لم تَـــخُــنْ مِـكْـنَـسَةَ «البَـلّانِ »

ما زالت بها

تكْـنُـسُ صحْـنَ الدّارِ ، والدّارَ

وسطحَ المَـصْـطَـبَةْ !.

هيَ ضدُّ الكَـهْرَبَةْ !

منذ أنْ لامستِ التيّـارَ سَهْـواً

هي ضدّ الكهربةْ !..

لا تناقِـشْها ...

«أبو عمّارَ»، بِـكْـرُ البيتِ

لو، يوماً، يـُداري غـَضَبَهْ

أَشْعَلَتْ فانوسَها

واستعادتْ «عَـنْـزةً»، كانت لها ..

لزهورٍ ، عمـَّتي، أسْبابُها :

«عَـنْـزَةٌ، يا بْني، أمانٌ

من عوادي المَسْغَبَهْ !..»

* * *

لـَقـــَّبوه « كـِجـَّـةَ [1] الحارةِ » ... عيني !

ما الذي تعنيه «كِجـَّةْ» ؟ !

لا أنا أدري

ولا الضـَّادُ... ولكنْ

كلما أَمْسَكَ بالعـكـّازِ

---

(1) جميع الأسماء والألقاب التي ترد في هذه القصيدة هي لشخصيات حقيقية عرفتها بسنادا قديماً. بعض الألقاب طغت على أسماء أصحابها، بحيث ما عُرفوا، وما عرفـتُهم إلا بها.

لقد حافظتُ، بأمانة، على طلاوة وطرافة تلك الألقاب كما كانت متداولة.

أو ألقى، على القُمْباز . . . بـُقْجَةْ[1]

عَـبَـرَ الحارة مَزْهوّاً

يَمـُجُّ التـَّبْغَ

حتى تُحْرِقَ الشـَارِبَ . . مـَجـَّةْ ! .

كان، يا ما كان، يعدو

خـَلـْفَ مَنْ عدّوا

يـُدارون لـِمـَرْأى الشارب المحروقِ . . .

بـَهـْجـَةْ ! .

* * *

---

(١) **بقجة** : شالٌ ريفي .

جُبَّةٌ «للشيخ رضوانَ» ولَفَّةْ
لو تراها، قلتَ: عِفَّةْ!
غير أنّ «الشيخَ» يهوى
«عَرَقَ العقُّور»[1] ليلا
فإذا عَبَّ قليلا
صارتِ «البَطْحَةُ»[2] ليلى
وعُرا اللَّفَّةِ... خُفَّةْ!

* * *

(١) **عرق العقور**: يُستخرج من تخمير التين اليابس الرديء: «العقّور».
(٢) **البطحة**: وعاء زجاجي معروف، للعرق.

«ما» الذي أَوْقَـعَ «فاعورَ»

على كَـوْمةِ كَـلْسٍ ... فَـعَـميْ ؟ !

قَـدَرٌ أمْ بَشَـرٌ ؟ ! . . .

ما هَـمَّ، كانت لِـصَـقْـهُ

مجنونةُ الضَـيْعةِ «كَلْـتومُ» . . .

فهل كانت تعي ؟ ! . . .

صَرَخَـتْ : «يا حسرتي

لن يُبْـصِـرَ الشَّـمسَ . . . ارجعي

للبيتِ، يا بِـنْـتُ، ارجعي !» .

«مَـنْ» ، تُـرى، أوْقـعَ فاعورَ

على كومة كلْـسٍ . . . . فَـعَـمي؟ !

* * *

يا : «حُسَيْسُون الكسيحْ»

كهبوب الريح تمضي

كلما هبـَّتْ، على الضـَّيعَةِ ، ريحْ

لتـُفلـّي، تحت سقف الليل، قصراً

شطـَّ عن جيرَةِ فلاحيّهِ ...واسـْتـَرْخى

على تـَلٍّ فسيح !!

ثـُمَّ تأوي، الفجرَ، تـَمْويهاً

إلى صمت ضريحْ !..

وحدَه، عـِزُّ الظَّـهيـرَةْ

كان وقتاً للمَسرّاتِ الصغيرَةْ

تتقرّاها

متى ناجى حنينُ القصب البـَرِّيِّ

في أنفـْاسِـكَ الحـَرّى

تباريحَ ضـَفيرَةْ

لـَوَّحـَتْ للبحر باللـَّحْنِ الجريحْ !..

* * *

للقِـمارْ

عند «داهودَ دُوَيْبَةْ»

فُـسْحَةُ الليل، وآناءُ النهارْ !..

للشِّـجارْ

ولِـشُـرْبِ العَرَقِ المَغْـشوشِ

وقتٌ مُسْـتَـعارْ !..

دائماً، ثمـَّةَ وقتٌ مُـستَـعارْ

عند داهودَ دُوَيْبَةْ !

* * *

ليس (O, I) أحْرُفا !..

كان، في الكُتّاب، تلميذاً ضئيلاً.. واختفى:

جارُهُ «المِرْواطُ»(١)، يا ما جَرْجَرَهْ !..

فَبَدا (الإي، أو) كَصِفرٍ.. نكِرَةْ

وبدا المِرْواطُ قَدَّ الشَّجَرَةْ

بهما شكَّلَ «أستاذُ» الحساب، العَشَرَة

يومَ، شيخُ النَّحْوِ: (شاهْ)

---

(١) **المرواط**: لقب أحد شخصيات بسنادا، الباهرة الطول. والمرواط غصن طويل، مرن، يقّده الفلاحون من شجر التوت غالباً، ليطالوا بوساطته حَبَّ الزيتون، في أعالي شجرهِ عند جَني الموسم.

ودَّ أن يصـنْـعَ لاسْمِ الصوت شـبْها

دّور «الإي، أُوْ »، كهاء ، دَوّرَهْ !

واضعاً، مِنْ قبْلهِ، المِـرْواطَ، مدّاً، ألـِفا !!.

رَدّدَ «الإي أو »، مع الأولادِ : «آهْ»

وبصمتٍ، قال لِلعِلمِ : كفى !!.

هَربَ «الإي أو »، إلى جيشِ فـِرنسا

[صار «صـِنفَ بْلـَوَّ »، يعني :

صار عرّيفاً، ولكن .. نـُصِّفا !]

حَـفظ ال (O, I) ... اكتفى

مرّةً أُخرى ...

اخـْتفى !.

* * *

«لِـعَليْ هَوْلا» مواويلُ

على وَقعِ خـُطاهُ !

وخـُطاهُ .. مثل أوراق الخريفْ

«شَلَـحَتْها» الريحُ سَهْواً

من رصيفٍ، لرصيفْ !

وعليْ هَوْلا ... يُعاقِـرْ

عرقَ العَقّـورِ ، لكن ... لا يُشاجرْ

ربما، لو «بلغ السَّيلُ الزُّبى»

أطلَـقَ .... مَوّالاً «عنيفْ» ! .

ومتى أوشك أنْ يَغلِـبَهُ

فِي لعبَةِ «السَّيْفِ»(١) مُقامِرْ
سقطت من كُمِّهِ الأيسرِ، أشياءُ
تُخلّي رابحَ اللعبةِ ... خاسِرْ!
ذلك اللصُّ الظريفْ!.

* * *

(١) **لعبة السيف**: من ألعاب الورق، تجري بين مقامرين، يسحب أحدهما ورقة ويخفيها، اللاعب الثاني يوزع الورق، ورقة لخصمه وورقة له، يكشف الخصم الورقة المسحوبة والمخفية، ويستمر التوزيع حتى تظهر الورقة المناظرة، فالذي تسقط عنده يربح.

آه يا عبّودُ .. عبّودَ القزَقْ

غَـلـبَتـْكَ، الآن، أيامٌ

وشارَفْتَ نهاياتِ الرَّمَقْ

غير أنّـي

لم أزل أذكر . أنـِّي

كنتُ في «الحارِ» (١) صغيراً

أنبشُ الأعشاشَ

---

(١) **الحار**: اسم لمساحة من الزيتون والحَوْرِ، في الجهة الشمالية من بسْنادا.

ألهو، وأُغني

عندما جئتَ تلمُّ التعبَ الصيفيَّ

في أفياءِ «حَوْرَهْ»

فتشظى غيظـُكَ المكتومُ

من ضوضاء لـَحني..

وتخطّى غضبي قدْرة سنّـي

غير أنّـي

لم أزل أذكر أنّـي

عدت للبيت كسيراً

ما رأى، في البيتِ، من يطلب ثأرَهْ

* * *

«زيْبـَق الضـَّيعة» يُدعى

قيل : إسمٌ لـِمُسَمّى

حَيَّرَ الضَّيعةَ، لـَمّا

مَرّةً لـَصَّ كروماً

دون أن يَدْخـُلَ كـَرْما !..

مَرَّةً أخرى... نساءً

ثم صلّـى، واستحمـّا !..

أدْمَنَ المَـيْسـِرَ

لم يُبْقِ له المَيْسِرُ كـُمَّا !.

لا تَسَلني كيف ماتْ

ذلك المهجورُ بيتاً، وبنيناً، وبناتْ :

كانت الدنيا شتاءً

وسواقينا فراتْ !..

عندما عاد، مع الفجر، يَجُرُّ الخَطوَ، أحنى

يُطفئ الجَوْفَ

تراءى، وجهُهُ المُطفَأُ، في الماءِ

تراءتْ ذكرياتْ

لم يشأْ أن يرفعَ الرَّأسَ الـّـتي

أَثْــقَـلَها السُّكْـرُ ....

تراخـى ...

تاقَ للغَـفْـوَةِ .... أغفى !

شاتماً «أُمَّ الحياةْ !..»

* * *

عند (حَمّودَ رُجَيْسَةْ)

كان ما أغراك غِرّاً

يا فؤاد بن نُعَيْسَةْ :

قِطَعُ الثَّلج التي تَنْدُرُ في الريفِ

وتوتُ الرّومِ

والمَقْهى..

شبابٌ، وصبايا

يَعْبُرون المَدْخلَ الشّرقيَّ

نحو «القَـنْطَـرَةْ» !..

يا مشاويرَ العشايا المُـقْـمِـرَةْ

ذكـّريني

بسمةً تـَنْدى على غـُمـّازَتـَيـْنِ

وغَـمْزَةً مُسْتـَهْتِـرَةْ

كيف أَمْسَتْ

قصـَّةً تـُرْوى، وتـُرْوى !..

بين مقهانا... ودَرْبِ القَـنْطَـرَةْ.

* * *

لم يكنْ شيئاً مـهُمّا

كان أعمى .. شـبْهَ أعمى !

عند قوس المدْخلِ الشـَّرْقيِّ، يَكـبْو

مـُضْمـراً، في غـبَـشِ العينينِ ، غـمّـا

ناطـراً شـُغْـلاً

يـقيـهِ مـنـّةَ الإحسانِ

والشكوى

لـغـَيْرِ اللهِ ، ربِّ العالمينْ !.

لم يكن شيئاً مُهِـمّا ..

مَـحْـضُ حمّـالٍ ، يـُسَمّى

عندما تعيا ظهورُ الآخرينْ !.

مَنْ تـُرى، يذكر حَمْدو

ذلك المَنْسيّ، غـَرْبَ الضيعة الغـَبْراءِ

مِـنْ عَشْـرِ سنينْ !؟.

*　*　*

مِـنْ زمانٍ ، من زمانْ

كان يَمْضي، والدُّجى كَثٌّ،

يُفَلـّي طُرُقَ الضَّيْعةِ

رغْـم الوحْـلِ ، والبـَرْدِ . . .

لِـيَمـْتدَّ الأمانْ . . .

ونهاراً، من زمانْ

ربّما جالَ على تلك الحِـيازاتِ البعيداتِ

التـَقى جـَمْعَ النواطيرِ . . . اطـْمأنْ

طَـمْأنَ «المُـخْـتارَ»

أنَّ الأمْنَ «مثل الليرة الصَّفْـرا» يَرِنْ!..

ومتـى حطـّتْ، على الضيعةِ، أرْجالُ «دَرَكْ»

مَسَّدَ الخَـيْلَ، سقاها

يَسَّـرَ الأعلافَ: قشّـاً، وشعيراً..

ما ارْتَـبَـكْ...

فإذا قيل: بلاغٌ

صعد «المَرْمَـرَ»[1] كالبرق، ونادى

(١) **المرمرُ**: أعلى حي في بسنادا، كان الحوَّاط - المنادي - حارس القرية، يصعد إلى أعلاه ليصرخ مُبَلِّغاً الأهالي ما تريده منهم السلطة، لم يكن ثمة مكبرات صوت، والحواط يُنتقى من أقوياء الصوت، والجسد، ومن أكثر الناس أمانة.

أَبْلَـغَ الضيعةَ ما شاء الدّركْ

ذلك الصوتُ الذي يَـقْـرَعُ أبراجَ الفَـلَكْ !.

من زمانْ

«شـفْـتـُهُ» يسعى به العـكّـازُ

مَـهْـدوماً ...

تناساهُ الزمانْ !.

* * *

عندما مات «حَميدُ»

- وغريباً، كان قد مات حَميدْ

عاملُ «المعْصَرَةِ» الطَّيِّبُ

كالزيتون، والزَّيتِ

وذو الزَّنْدِ الحديدْ -

لم أكن أعْرِفُ كيف الناسُ تحيا، وتموتْ !:

ضيعةٌ تسهر في الصيفِ

على أسْطُحِ أشْباهِ البيوتْ

«وحُضيري بو عزيز» (١)

- سامَحَ الله حـُضيريْ -

كلما صاح، مع الليلِ : حـَميدٌ، يا حَميدْ

غسلـَتْ بالدمع بسنادا

مناديل صـِباها

عَـلـَّقـَتـْها فوق أغصان صـَباها !..

ثمَّ أغـْفتْ

في سكوتٍ، في سكوتْ !.

* * *

(١) مطرب عراقي قديم، كأن صوته يختزن كل شجن العراق، اشتهرت أغنيته (حميِّد يا حميِّد) في أوائل الخمسينيات أيام وفاة (حميد) بسنادا، تلك كانت المفارقة.

«لِسَليمَ» الوردُ، والشوكُ، وما بينهما !.

أيُّ هَـمٍّ

فـتَـّحَ الجرحَ الذي بينهما ؟..

ليلُ، يا ليلُ

تناهى الشوك، والوردُ

تناهى الهمُّ

ذاك العمُّ.... ماتْ:

جـيْبـهُ قاعٌ

وفي القاعِ «فِـرَنـْكانِ»[1] ... وثقـْبٌ !..

علـْبَةٌ للحزن.... ملأى !

علـْبَةٌ فارغةٌ... للأمنياتْ !.

* * *

(1) **الفرنك**: ١/٢٠ من الليرة السورية، ألغي منذ سنوات.

ذلك الصيفَ البعيدْ

صِبْيَـةً كنـّا

وكان اللـَّهْوُ عيدْ . .

«يا بَرارينا احتوينا

نحن جيناكِ . . . وَجيـْنا

نجبل الطــِّينَ، نشيدْ

قـَصْرَ هارونَ الرشيدْ ! .»

- هاتِ ماءً، يا مُحَمّدْ

ما تردَّدْتَ

صدى عَدْوِكَ، في الوادي، تردَّدْ ..

مرّة، مَثْنى، مِراراً ...

آخِرَ المَرّات ناديناكَ:

- ماءً ... يا محمّدْ !.

وافتقدناك ... افتقدناكَ ... افتقدناكَ ..

افتَقَدْنا

جسداً يطفو على الماءِ

وجِلْباباً تبدَّدْ

يا بْنَ عمّي

يا محمّدْ !.[1]

* * *

(١) هكذا توفي محمد سليم يافعاً وغريقاً في «عين شورب».

حدّثـتَنْي «طبريّا»

عن عريسٍ

باسقِ القـدِّ، نبيلِ الزّنْدِ، أسمرْ

ضافـَها ... أوّلَ ضوءٍ

يَغْـسِلُ الحربَ، لِـيَمْضي

طـلّـةَ الفجْرِ

إلى حضن عروسٍ ...

- أوف ... ما أبْعَدَ بسْنادا - تذكـّرْ .

سنواتٍ نَـطـَرَتـْهُ

وفصولُ العـُمْرِ تجري

بين مـرٍّ يـَزْحـَمُ البيتَ

وبيتٍ .. في أعالي الحـَيِّ : «مَرْمَرْ».

وَدَّ لو طار مع الريحِ

ارتمى فوق بساط الريحِ

بالـّريح .. تزنَّرْ !.

وَدَّ ما وَدَّ ...

ولما ضاقتِ الدنيا

وضاق الصـَّدْرُ ...

شقَّ الصمتَ صوتٌ يـتَـغـَرْغـَرْ !..

هـَرْوَلـَتْ عيناهُ ... أصغى

(يتعالى الصوتُ ... يـَجـْأرْ !..)

شـبَّ عـُرْيانَ .. وأَصْغى

(ذلك الصوتُ، تـكـَسَّرْ !.)

ضَرَبَ الماءَ ...

توالى الضَّرْبُ ... طافْ :

(ما الذي يَلـْتـَفُّ، أُفٍّ)

غاصَ في الماءِ .. أضاف !.

(ما الذي يـَلـْتـَفُّ، ماذا ؟ !.)

أسْلـَمَ الغرقى إلى بَرِّ الضفافْ ..

(ما الذي يَلـْتـَفُّ ... يلتفُّ؟ !...)

تَوارى !.

- كيفَ ؟

- لا أدري، توارى !.

حـَدَّثـَتـْني طبريّا

عن عريس الماء، غاضـَتْ !.

حـَدِّثيني، آخِ بسْنادا، عنِ النـَّعـْشِ

وعن شـَجْوِ الزَّفاف !.[1]

* * *

---

(١) هكذا توفي محمد إسماعيل عام ١٩٤٨ غرقاً في بحيرة طبريا، حيث كان يحارب، بعد أن أنقذ سواه، ذلك عشية عرسه، وفي بداية إجازته. بسْنادا ما زالت تذكر محمد إسماعيل، زين شبابها آنذاك.

خـَلـْوَةٌ للفـَيءِ، والضوءِ، توالتْ

ثمَّ مالتْ

وتوالى الهمسُ من عامٍ لعامْ :

كان «داهودُ » فتيـّاً

وقويـّاً

كان «داهودُ » وسيما

خـَطـَفَ الأبْصارَ، لكنْ

خطفتـهُ حـُلـْوَةُ الضيعةِ «ريْما»

في زمانٍ يمنع الحـُبَّ، فـَهـَامْ . . .

سَـفَـرُ البرِّ ... وحربٌ

سفر البحر ... وحربٌ

وعلى الأرض الظلامْ ..!

[هكذا أنقذ جـَدّي

شـَرَف البيتِ ...

ونـَقّـى حـُرْمـَةَ البيتِ

من الحب «الحرامْ» !!..]

ومضى جيلٌ، وجيلٌ، إثـْرَ جيلْ

لـَمـَحوهُ - قـِيـْلَ - يسعى

نـَحْوَ يافا ... والجليلْ

ناثراً عطرَ الخـَزامْ . . .

حملوهُ، بين هـُدْبينِ، وساروا

عندما رفَّ الحـَمامْ . . .

لم يكن، في النـَّعـْشِ إلا

عشُّ أحلامٍ . . تنامْ ! .

يا حَمامات، اسْبـَقينا

ذلك الفارس آتٍ

بـَعـْدَ ظلـَّيْنِ

إلى دار السلامْ[١] ! .

*   *   *

---

(١) تلك حكاية عمي «داؤد» - تلفظ في القرية «داهود»، عمي الذي لم أره قط .

جـدَّتي

شبَّ صغارُ الحيِّ، شابوا !..

والذين استوطنوا القلبَ، وغابوا

مـثْـلَ «نـُقـْصِ المِـلْـحِ»[1] .. ذابوا !.

أُغـْلِـقَـتْ شتّـى جهات الأرضِ

لا «داهودُ» وافاكِ

ولا وافى

---

(١) **نقص الملح**: عبارة شعبية تعني كمية قليلة من الملح المتماسك، العبارة هنا رمزٌ للغياب السريع والنهائي.

مـُقامَ «الخـَضـْـرِ» والنـَّـذرِ .. جوابُ !

ومضى العمرُ انتظاراً

ثـُـمَّ ....

واراكِ التـُّـرابُ .

* * *

الأجـواء

مرّةً أُخـْرى، نعودُ

والوعودُ

أنْ يـَلينَ الزمنُ الضـّاري

وأنْ يـَخـْضـَرَّ عودُ ...

مرّةً أخرى

تـِلالُ التـِّينِ، والزيتونِ

مـِنْ بـَرِّيـَّةِ الليل، تـُناديـنا

نـُلـَبِّي ...

فاذكرينا .. أوف بسْنادا، اذكري

أو ذكـِّرينا

بالأساطير التي أرْضـَعـَنا شهْدَ مـَعانيها

الجدودُ

وَنـَسينا ... فـَتـَناسانا الوجودُ !.

* * *

كان، يا حُبُّ، لنا

وَقْتٌ بهيجٌ

عندما نَلْتَمُّ حول المائِدَةْ

مَيْزَرُ الخبز، يمينَ الوالدَةْ

وعلى صينيَّةِ القشِّ، صِحافٌ

نِصْف مَلأى . . .

كوزُ ماءٍ باردٍ

ذرَفَتْهُ «عينُ فوقا» الباردَةْ ! .

كان كـَلبُ الحيِّ يـَدْنو طـيِّعاً

ودَجاجُ الحيِّ يقتاتُ البقايا الشاردَةْ .

يا طلولَ الزمن المـَهْدورِ

مـَنْ شـَــتـَّتنا

ثم أغرى بعمود البيتِ

ناراً واقـِدَةْ ؟! .

* * *

لطيورِ الحَـوْمِ صوتٌ

هادئُ الإيقاعِ ...

صيفيٌّ ...

شفيفٌ ...

لا يُـسَـمّى !..

كلـّما رنـَّقَ، في الليل، وأَوْما

هـُرِعَ الصبيانُ : نعسانُ، وعـُرْيانُ، وحافِ

يـَرْمُقون الحـُلـُمَ المنسابَ من ريش الخوافي

صَوبَ «ستِّ بْدُورِ»، والقصر المـُدمّى!.

- يا طيورَ الحوم، باللهِ، خذيني

لا تقولي لأبي

أنا خبـّأتُ، بعبـّي

نـَصْلَ سيفي الخشبي

ناطراً أيلولَ

عـَلـّي أذبح الغولَ الذي

غـيـَّبَ «ستَّ بْدُورَ»

خلفَ الجـُزُر السـَّبْعِ، أُوافي

حضنَ أُمـّي

قـبْلَ أنْ أُوقـظِ أُمـّا ! . . .

يا طيور الحوم . . . باللهِ . . خذيني .

* * *

من شحوب الفجر، يأتي

من دروب الوَعْر، يأتي

من خيالاتِ الجِـوارْ !..

ناثراً رَجْـعَ النـَّواقيسِ

على أجْـنِـحَـةِ الريحِ

نداءاتٍ حميماتٍ

بها كنّـا نـَحارْ

(نـَفـْرُطُ اللعبةَ

- نـَحْـنُ العـَسْكـَرَ المـُجْرَ -

خيولُ القصب البـرِّيِّ، نرميْها

سيوف الخشبِ المَنْـخورِ، نرمي ..

هدْنـةٌ، تـعْني نهاياتِ الشـجّارْ (!.)

كان يـدنو

عـمْرَةُ اللـبّـاد، والكوفيـّةُ السمراءُ

فوق الرأسِ

ما هـمَّ لوِ احـتدَّتْ سياطُ الشـمْسِ

ما هـمَّ ...

أتانٌ، تتهادى إثْـرها النـوقُ

حـُداءٌ .. وغـُبارْ !.

كان يـدْنو، ذلك الجـمّالُ، يـدْنو

فإذا المَـشْـهَدُ :

- أحداقٌ وسيعاتٌ . .

- وأفراحٌ يـُنَدِّيْها غـَمامُ الخـَوْفِ . . .

- خـُفٌّ يـَنـْقـُشُ الأرضَ . . .

- رُغاءٌ . . . واجـْتـِرارْ .

وعلى مـُفـْتـَرق العمرِ

بقايا دَهـْشـَةٍ

تستوقف العمرَ

وتـَمْتاحُ أساطيرَ الصـِّغارْ ! .

* * *

سومريٌ .. ذلك النَّـوْرجُ (١)، ذو المُـهْرِ الكحيلْ
وأبو بَـلَـتَّـةَ ()، بالمذراةِ سوّى
خُـصَـلَ القمحِ، على البـَيْدَرِ، عـِقـْداً ذهبيـّاً
وتأنـّى ... ناطِـراً شمسَ الضُّـحى
حتى انـْحنـَتْ صَوبَ الأصيلْ
فاعتلى نـَوْرَجـَهُ، مـُنـْزلِـقاً
في نهر موسيقا
بِـماءِ الذهب الصافي ... يـَسيلْ !..

---

(١) **النورج**: أداة سومرية الأصل، لِـدَرْسِ سنابل القمح.

وتأنّــى ...

عـَشـْرُ دوراتٍ توالتْ

عـَشـَراتٌ ...

لم يـُعـِرْنا لـَفـْتـَةً !..

لم يـَدْعُ مـِنـّا واحداً !..

لو واحداً ... ذاك البخيلْ !..

والعيونُ الشـُّوسُ، ترنو

والشـِّفاهُ اللـُّعْـسُ، تـَلـْغو :

- يا أبا بـَلـَّةَ دعنا

نمتطِ النـَّورجَ، دعنا

ثِـقْـلُـنا ... ليس ثقيل

وبِـكَ النـَّوْرَجُ، ما زال خفيفاً .. ويـَميلْ !.

فإذا أرْدَفـَنا، صحنا :

أميرٌ أنتَ، واللهِ،

وهذا المـُهْرُ، يا عـَمُّ، أميرْ !..

وإذا أهْمـَلـَنا

أمطرتِ الدُّنيا حِـجاراً !..

(مـَطـَرٌ، واللهِ، يا عـَمُّ، غزيرْ !.)

* * *

عـُرسُ بسْنادا ابْتِـهالٌ

رَيـِّقُ المِـزْمارِ[1]

وَجْهَ الفجرِ ...

ترجيعُ طبولٍ

في العشايا ..

زَحـْمـَةُ الناس على الساحاتِ

إيْماءُ القناديلِ

---

(١) هذا ما كان في أعراس الريف، يسمى «النـَّوبة»: لحنٌ من مزمارِ غجريٍ، عند الفجر، شجي، مديد، أشبه ما يكون بابتهالٍ صوفيٍ حميم.

فَـرَاشُ الليلِ

أنْـسامُ الصبايا . .

يا هـلالَ الدَّبْكةِ المـُعْـتـَزَّ

تـَهْتـَزُّ، مع الأجسادِ، صوفيَّ النوايا

عـُرسُ بسْـنادا، الأغاريدُ

الزغاريدُ

الأغاني

سَرَحتْ، مـِنْ عـَدْوة الوادي

إلى البحر، تـُنادي :

حزنُ بسْنادا، وحزني

تـَوْءَمانِ التـَصَـقا

في صمت سجنٍ

يومَ زَفـَّتْ ضيعةُ الأقدارِ

للماء، وعرسِ الماءِ

حِـنـّاءَ الضـَّحايـا !.

* * *

قيلَ: للصــبَّـَّار[1]، من صبركِ، بسْنادا، الأسامي

قيل: للصــبَّــّار، من حـُسْنـِكِ، زَهْرُ

أصفرٌ... يـَلـْتـَمُّ ليلاً

ومتى لـَوَّحَ فجرُ

باحَ «بالتاجِ»، و«بالكأسِ»

لينداحَ، مع الأنسام، عطرٌ

---

(١) **الصبار**: كان – مع الزيتون – مصدر الرزق الأول لأهل بسْنادا قديماً، من ثمن بيعه تعلم الكثيرون، وتزوج آخرون، وابتنى غيرهم بيوتاً بسيطة يأوون إليها.

بسْنادا، الفقيرة، والمهملة، حتى الآن، أخذت تهمل صبارها، فمال إلى الانقراض.

ولينداحَ، على الأجفان، خمرُ !...

يـَغـْتـَلِي السُّكـْرُ غريراً

يتقـّرى الكاسَ، والتـّاجَ ... يـُغالي

تـغـْتلي الأشواكُ !..

للأشواكِ سـِرٌّ:

عاشقُ الحـُسْنِ المـُنْدّى

- ما مـَلامي ! -

غامقُ الغـِيْرَةِ، دامي !..

وله، في الحـُسْنِ، شـِعْرُ !..

- وَيْكَ تمـّوزُ.. تـَمـَّهلْ

زهرةُ الصـبَّـّارِ تذوي ...

والثِّمارُ الخُضْـر، أمْسَتْ

مثلما يـَبرقُ جـَمْرُ ...

فَـأعِـنـّا، نجتَـنِ الموسمَ ...

- ماذا ؟ !..

ربِّ ماذا؟ !..

أَمَضى، في زحمة الغُـربةِ، عُـمْرُ

ورجعنا ..

لا سياج البيت صـبَّارٌ

ولا، في طـَرَفِ البستانِ، صـَبْرُ ؟ !.

* * *

بـَهْجـَةَ الرّوحِ التي تَنْسابُ من أهدابكِ

الوطْفاءِ، بسْنادا

فـتـَنـْساحُ صباحاتٍ وَليدَةْ ..

رِعْشَـةُ العشب المـُنْدّى ..

صيحةُ الديــكِ ..

تراتيلُ العصافيرِ

عناقيدُ الصبايا ..

هـَفـْهـَفاتُ الثوب، فوق القـَدِّ ..

جـَمْرُ الخدِّ ..

رمـّانُ النهود المـُشرئبّاتِ . .

جـِرارُ الماء، يـَسْترنَ المواعيدَ العجولاتِ

بدرب العـَيْنِ . . .

والحـُبُّ المـُصَفّى، في الحواكيرِ البعيدَةْ . .

سَحْبَةُ المـَوّالِ . . يا تنهيدَةَ الرّاعي

حنيناً لبيوت الطِّـيْنِ . . .

إغراءُ النسيمِ الرَّهْوِ

والقـَيْلولةِ الكسْلى

بأفياءِ الغماماتِ الشـَّريدَةْ . .

لَذَّةُ العودَةِ، عند العَصْرِ، من حَرِّ الحَصيدَةْ

والنداءاتُ . المناراتُ

لأولادٍ

سَهـَوا، في غـَمْرَة اللـَّهْوِ

عنِ الشـَّمسِ التي تهوي إلى البحرِ ..

بكاءٌ ..

أمَّهاتٌ يـَعـْتلينَ السَّطـْحَ باللهفةِ ...

أصداءُ النداءات المـَديدَة ...

آهِ بسْنادا .. أعيديها

وَعـْودي

لو خيالاً في قصيدَةْ .

*   *   *

لم تكنْ أفراحُ بسْنادا كثيرَةْ

في الشِّتاءاتِ الغزيرَةْ :

ذلكَ السَّقفُ ..

وذاكَ الدَّلْفُ ..

و«المِحْدلةُ» الصمّاءُ، فوق السَّطْحِ ..

من يأتي بِحُوّارى، وطينْ؟ !..

ومتى تصحو؟ ...

لِيَلْتَمَّ، على «الإيثارِ»، جيرانٌ

وخـُلاّنٌ..

ولا مِنـَّةَ: أعْرافٌ.. وَدِينْ..

أسْعِـفي، يا شمسَ كانونَ، لِـماماً..

لو لِـماماً...

أسْعِـفيهِـمْ..

واخـْتزِلْني... يا حنينْ!.

* * *

لابْنِ آوى

آخرَ الليل، عواءٌ

موحَـشُ الوَقْـعِ ... حزينْ

يـَزحَـمُ الوديانَ مـُنْـثالاً

إلى أقصى الغياباتِ ... المسافاتِ .. السنينْ

يا طفولاتِ البراري

يا نداءاتِ الحنينْ

أرْجـِعيني

للبراءات التي غاضتْ

فغاض الماءُ، والحـُبُّ

وغاضَ الياسمينْ.

* * *

عَـبَـثَاً، صحتُ بأيامِيَ : مَـهْلا

وتَـشَـبَّـثْـتُ بأرضي

عَـدَّتِ الأيامُ عَـجلى

تَـنْـهَـبُ العمرَ .. وتَـمْـضي

وتلفَّـتُّ، أرى ظلّـيَ وَعْلا

يسأل الأمْداءَ عن دربٍ

إلى دربكِ ، يُـفْضي

عَبَـرَ الوديانَ،جاب الجبلَ العالي

وفلّـى

شُـعَـبُ المَـرْجانِ، من غَـيْضٍ لِـفَـيْضِ

وتناءى، والمساءاتُ نداءاتُ

عصافيرَ، ودفْـلى

وسَواقٍ تخطف الأقْـمارَ

والأقمارُ تـُغْـضي ..

مَـرَّ ظلّـي في براريكِ

سريعَ الوَمْضِ .. طفْـلا

أوف .. مَـنْ أطفأَ وَمْضي؟ !.

وإلى صدركِ «بَسْ نادى»

يفيءُ الطفلُ كـهْلا

وعلى صدركِ يـُفضي :

في صحارى، تـَحْقـُنُ الأنفاسَ، رَمْلا

وصحارى، تَـنْفُثُ السُّمَّ بنبضي

كنتِ، لو تدرين ما الغربةُ، أحلى

غيمةٍ هامـَتْ معَ الشوق المـُمـِضِّ ...

كلما هـلـَّتْ ... وهـَلاّ

هـَمَّ، مـِنْ تحت اليباسِ المُـرِّ .. غَضِّي !.

* * *

تَتِمَّةٌ... ما لا يتمُّ!

أُفـلـِّيكِ سَهْلاً

سهوباً

بساتينَ لـَوزٍ

بيادرَ قمحٍ

مروجاً

جروداً

جبالا . . .

أُقبِّـلُ أرضَ الطفولاتِ

بيضاءَ .. تـَخـْبو مساءً

وتـَبْزُغُ فجراً

نوارسَ .. تطفو على زَبَدِ القلبِ ...

أَمْضي لواديـكِ

مــاءً زُلالا ..

أُغمِّسُ كفّـي

بِجُمَّـةِ زيتونــةٍ

عابَـثَـتْـها الجَـنوبُ

فراغت شِـمالا ! ..

وقالتْ ... وقلتُ ..

يطولُ الكلامُ

لـوَأْنـّي أبـَحْتُ المـَقالا . . .

عبرتُ بـَراريْكِ

مـُهْراً أليفاً ، شـَموساً . .

وخضتُ سواقيكِ

تلك التي مَـوَّجَتْها مَراثيكِ . . آلا !

وياما تفيضُ المـآقي

متى ذكَّـرَتْني

مرايا الضفافِ رفاقي

وياما أُسائلُ آتيْكِ

عمّا توارى بـِماضيكِ

أشقى . . .

ويبقى . .

ويبقى السؤالُ، سؤالا ! . .

فـِداءٌ لعينيكِ، يا ضَيْعتي

ما جناهُ الصِّبا المُستَباحُ

وفـَدْوى لعينيكِ

ما خـَلـَّفـَتـْهُ الليالي . . . خـَيالا

هنا، يُبْتنـى

هيكلٌ للصلاةِ

وفي وَقـْدَةِ الوجدِ

يـَمْحو الحنينُ الزَّوالا !..

سَلـِيـْني

أنا الغَـرّبَتـهُ السنينُ

وجارَت عليه السجونُ

وخطـّت مُحـيّاه هذي الغضونُ

تـَغـَيَّرْتُ وَجْهاً

أغـَيـَّرْتُ حالا ؟...

تـُراثـُكِ إرْثي

وقهرُكِ.. ذاك العتيقُ

نديمٌ لقهري

و« زهرةُ»[1]، يا ضيعتي، زهرتانِ

على قبر «ضاهِرَ» مالتْ، ومالا (!..)..

وآنَ توالى

زمانٌ مِـنَ السَّفَـرِ البَرْبَريِّ

وريحُ التشارينِ تعوي

ودربُ التشارينِ

(١) **ضاهر وزهرة**: مغناة شعبية رائعة، ومنسية، يتناوب فيها السرد والغناء، ويمتزجان، لتحكي عن حبيبين فرقهما الحساد، وجمعهما الموت، قبرين متلاصقين، وزهرتين متعانقتين، تحاول شوكة برية المباعدة بينهما.

تعلو، وتهوي

تناهى إلى «ضامـةٍ»[١]

تستجيرُ التِّـلالا

فتىً، «أسمرُ اللونِ»[٢]

يـُحْكى: تنكَّـرَ يـبْسُطُ كـفّـاً

ويـُخْـفْي حلالا ! ..

تبلّـغَ[٣] ماءً .. وخبزاً

---

(١) **الضامة**: غرفة ترابية في البرية، يسكنها نواطير الموسم.

(٢) **أسمر اللون**: ذلك تلخيص شعري مكثف، ودقيق، لما روته لي جدتي لأبي، عن قصة الأغنية الشعبية المعروفة، والتي ما تزال مشهورة، وجارحة الشجن.

(٣) **تبلّـغ**: تناول بُلغة من الطعام، القليل منه.

وسامَرَ «أهْلاً»

يُكَـتِّمُ لُغْـزاً ..

ولـّما طواه النُّـعاسُ

تَـبَعْثَـرَ كنزاً !..

فأختٌ تـَغُـزُّ !..

وأمٌّ تَـحُـزُّ !..

وأسمرُ، يا ليلُ ..

أسمرُ، يا عينُ ..

أوْدَى اغتيالا !..

«لَـلا لا .. يـَلالا ...»

تـَغنـّى رُواةٌ

وغنـّى رُعاةٌ

وما زلتَ أسْمَـرَ لونٍ

تؤرِّق شَـرْقاً

وتشْغل بالا ! ..

فيا حَـوْرُ

يا حَـوْرُ

ماذا كتبْنا ؟ ! ..

عَلى جِذعِكَ الغَـضِّ

ماذا نَـقَـشْـنا ؟! . .

وماذا توالى ؟! .

* * *

فؤاد نعيسه

- شاعر، وكاتب، من مواليد (بسْنادا)، التي أمست الآن أحد أحياء مدينة اللاذقية.

- يكتب الشعر العمودي، والتفعيلة، المقال، والتحليل.

- يتبنّى شعر التفعيلة، بأسلوبه الخاص، محافظاً على كلِّ ما هو أخضر وجميل في القديم.

- هو أحد شعراء الستينيات، وأحد مؤسسي اتحاد الكتّاب العرب في القطر.

- ابتعد عن النشر طويلاً، وعاد إليه عام ٢٠٠١م. فأصدر المجموعات التالية:

١ - أحزان الصفصاف الباكي – دار المدى.

٢ - قد تُعشِبْ الصحراء، يا ولدي – دار النمير.

٣ - للحُب أحوالٌ كثيرة – وزارة الثقافة.

٤ - آهِ.. يا ضِيْقَ العناوين – اتحاد الكتّاب العرب.

٥ - قصائد للأرض والإنسان – وزارة الثقافة.

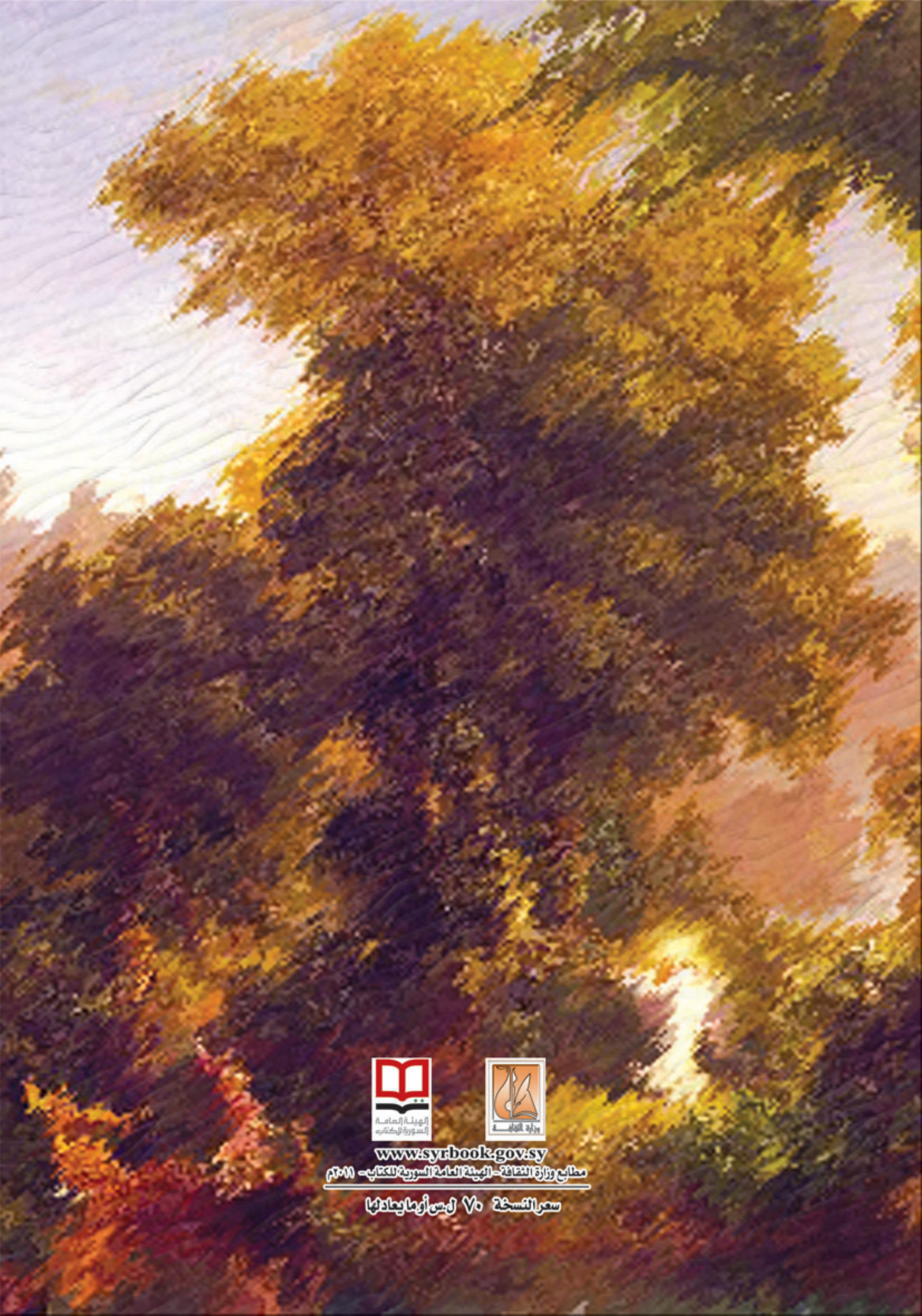
٦ - أغاني الدرويش الساحلي – اتحاد الكتّاب العرب.

وأخيراً هذه القصيدة / الملحمة : بحثاً عن تلك الأيام.

- ما يزال فؤاد، يتابع مسيرته الثقافية، بإعداد ما لديه من أعمال مخطوطة شعرية ونثرية للظهور.

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م
سعر النسخة ٧٠ ل.س أو ما يعادلها